ISSN: 2588-2384 مجلة المعيار
مجلد: 22 عدد: 44 السنة: 2018

الجانب الروحي عند أبي الحسن علي الحسني الندوي

أحمد جاب الخير
طالب دكتوراه جامعة الامير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة– الجزائر
djabelkhirahmed@gmail.com

تاريخ الوصول: 2018/02/06 / القبول:2018/05/23 النشر على الخط: 15/06/ 2018
Received: 06/02/2018 / Accepted: 23/05/2018 / Published online: 15/06/ 2018

الملخص :

تتناول هذه الدراسة الجانب الروحي من الإسلام، أو ما يُطلق عليه التصوف عند أبي الحسن الندوي، وأثره في تفعيل الواقع وإصلاح شؤون الحياة، وذلك من خلال إصلاح الباطن، والعمل على تزكية النفس، وتخليتها مما يعلق بها من شوائب وأدران، ثم تحليتها بمختلف الفضائل، وهو ما يُعرف بالمجاهدات والرياضات الروحية، حتى إذا تحققت النفس بمعاني الكمال تمكنت حينها من مجابهة مشكلات الواقع، والتأثير فيه إيجابا، وعمدت إلى إضفاء صبغة الخيرية على كافة مناحي هذا الواقع وعلى مختلف شعاب الحياة، وبذلك كانت هذه الدراسة ربطا بين التصوف والواقع .

الكلمات المفتاحية: الجانب الروحي ; تفعيل الواقع ; شعاب الحياة .

The spiritual aspect abi Hassan Ali Al- Hasani Al nadawi

ABSTACT

This study deals with the spiritual aspect of islam or what is called Sufism When abi Hassan nadawi, And its effect to bring improvements reality and living conditions, To work on the recomondation of the soul and the bride in the runways of perfection and the trough abandonment, of various virtues in the conext of what is known as gestures and sports sof that is the self realised the sense of profection got the ability and confront its problems, And has been to make the character, of all of the Koran and the deferent characters this study is a link, And so on between Sufism and reality .

Keywords:-Spiritual side ; Activating reality ; the reef of life .

مقدمة:

لا تزال العديد من المصطلحات في الحقل المعرفي الإسلامي تعاني غربة النفي ومرارة الاضطهاد من جهة، ومشكلة الفهم المشوه والمبتور الصلة بالواقع من جهة أخرى، ولا نحسب أن مصطلحا من المصطلحات الإسلامية عانى مرارة هذه الغربة بوجهيها بين أهله وذويه كمصطلح التصوف الإسلامي .

ومن الجلي أن نفيه من ساحة المعرفة الإسلامية يكمن في التنكر له واعتباره دخيلا وافدا من ثقافات أخرى، وأما سوء فهمه فيكمن في سطحية تناوله، وحمله على أنه عزوف عن شؤون الحياة، وقطيعة تامة مع حيويتها ونشاطاتها التي لا تقوم إلا عليها، ومن هنا كان لا غرو في أن تجد من يُعَلق عليه تقهقر المسلمين، ويجعله السبب في تخلفهم عن الركب الحضاري .

ولقد اقتضت مشيئة الله تعالى أن يُقيض لهذا الدين من يذود عن حماه، ويُبين حقائقه نقية من كل ما يمكن أن يلحقها فيكدر صفوها، ومن هؤلاء العلماء الربانيين الإمام أبو الحسن علي الحسني الندوي –رحمة الله عليه–، إذ كانت إسهاماته بحق على درجة رفيعة من العمق والتحليل، والتناول والاستدلال، وهو ما يسوقنا إلى التساؤل التالي:

- ما هو المفهوم الصحيح الذي تتناوله دلالة الجانب الروحي في الإسلام ؟ وكيف يمكن الانتقال بهذا المفهوم من طور التنظير إلى الممارسة العملية الصائبة؟ .

وهذه الإشكالية بدورها انطوت على العديد من التساؤلات التي يمكن تفصيل طرحها على النحو الآتي:

- من هم أهم الأعلام الذين يمكن عدهم الأرضية الخصبة التي شكَّلَت الشخصية الروحية لأبي الحسن الندوي ؟ .
- ما هي مقومات العناية بإصلاح الباطن؟
- هل يمكن القول بتمحور مشكلة العالم الإسلامي حول ضعف الجانب الروحي؟ و إذا كانت كذلك فما هو السبيل الأمثل الذي به تتفجر ينابيع الروح، وبه تُثار العواطف ويستيقظ الوجدان؟ .
- كيف يمكن الوصل بين ثورة الإيمان وثورة الحياة، أو بين أنوار القلب وشؤون الحياة ؟

وهذه التساؤلات هي التي كان عليها مدار اهتمامنا في هذا البحث، وقد حاولنا الإجابة عنها ضمن المعطيات التي قدمها أبو الحسن الندوي – رحمة الله عليه– ، وذلك وفق الخطة الآتية:

–مقدمة.

1–أهم الشخصيات المؤثرة في أبي الحسن الندوي.

أ–شخصيـــــــة ابن تيميـــــة (ت728هـ).

ب–شخصية جلال الدين الرومي (ت672هـ).

ج–شخصية أحمد السرهندي (ت1033هـ).

د–شخصية الأمير عبد القادر الجزائري (ت1223هـ).

2– العنـــــــاية بإصلاح الباطن.

أ–التحلي بالإيمان الصحيح والتوحيد الخالص.

ب–إحياء الأبعاد الروحية في الشعائر .

ج–الذكر وأثره على القلب والسلوك .

د–تصحيح النية .

3– الإيمان من التنظير إلى الممارسة العملية.

4– التصوف ودوره في إصلاح الواقع .

– خاتمة .

1–أهم الشخصيات المؤثرة في أبي الحسن الندوي .

يُعد أبو الحسن علي الحسني الندوي (ت1420هـ) – رحمة الله عليه– من قلائل علماء هذا العصر المتميزين بشفافية الروح، وسمو الخُلق، وذلك ما نطقت به كتبه، وعبَّرت عنه مواقفه، ونحسب أن مَرَد هذه الروحانية الثائرة فيه إلى عوامل شتى، ولكننا سنكتفي في هذا المقام بذكر عامل واحد من جملة هذه العوامل، وهو الوقوف على أهم العلماء الذين تركوا بصمتهم في شخصيته – رحمة الله عليه–، وكان لهم بالغ الأثر في حياته الروحية وكتاباته الثائرة.

أ)– شخصية ابن تيمية (ت728هـ): وهي شخصية غنية عن التعريف، حيث كان – رحمة الله عليه – من أبرز العلماء الذين انتهجوا الوسطية والاعتدال في فهم وتناول مسائل التشريع الإسلامي، وذلك خلافا لما يُشاع عنهم، مما يجعلنا نجزم بأنه ظُلم مرتين، مرة من قِبَل المتعصبين له عن جهالة، ومرة من قِبَل الناقمين عليه عن تعصب .

وقد ذكر الندوي – رحمة الله عليه – أن أتباعه – عدا ابن القيم – لا يرون فيه أكثر من محدث جاف، وعالم متبحر في علوم الظاهر[1]، وهي في الحقيقة رؤية قاصرة لا تنم على أزيد من ضيق في الإطلاع، وسوء في الفهم، ولذلك نجد أن الندوي – رحمة الله عليه – كانت له رؤية أعمق وأدق تجاهه، حيث بين أن أغلب المترجمين له من أمثال ابن القيم في مدارج السالكين، والذهبي في السير، وغيرهما قد أدركوا هذا البُعد في مصنفاته، ونبهوا إلى أن الرجل كان قد حُظي بجمال الخلق، وحسن الذوق، وشفافية الروح،

[1]– أبو الحسن الندوي، ربانية لا رهبانية، بيروت: دار الشروق، ط1، 1983م، ص71.

وهو ما يجعله يرتقي إلى مصاف العارفين، ويحوز على مقام أرباب القلوب، بل ومن المقطوع به أنه كان صوفيا مجاهدا، ومربيا بارعا[1].

والذي يراه الندوي في هذا المقام هو من صائب القول، وآية ذلك أن كل مُطلع على مصنفات الرجل وخاصة منها مجموع الفتاوى يدرك أن الرجل كان باحثا مُنصفا، إذ طرق بقلمه بعض مناحي المعرفة الروحية، وعالجها بعمق وإنصاف، بل وتمكن من فقه أبعادها وأسرارها، والتمس المعاذير للعديد من المتصوفة، مما يدل على أن له باعا لا يُستهان به في عالم الأذواق.

ب)– شخصية جلال الدين الرومي (ت672هـ): وهي شخصية أكثر بروزا في دنيا التصوف وعالم المعرفة الروحية، وقد عُرف الرومي بوفرة أشعاره المفعمة بالحب والرحمة، والسلام والأخوة، وكان معروفا بانتسابه للطريقة المولوية، ومعروفا أكثر بديوانه المسمى بالمثنوي .

ولقد تأثر به أبو الحسن الندوي تأثرا بالغا، ويظهر ذلك في كثرة الاستدلال بأقواله وأشعاره ولا سيما منها تلك الحُبلى بأقوى معاني الحب وآيات السلام، ومن ذلك مثلا قوله: ((إن المحبين الذين بذلوا مهجهم وأحرقوا قلوبهم لا تُنَفَّذ عليهم القوانين العامة، ولا يخضعون للنظم السائدة))، وقوله أيضا في وصف لوعة الحب ومدى هيمنته: ((إن القرية التي خُربت لا تُفرض عليها الجبايات والضرائب))[2]، والذي يبدو من كتابات الندوي أنه كان كثير الاشتغال بأشعار جلال الدين الرومي، وهو ما فَجَّر ينابيع حرقته، وجعله كثير الاكتراث بالجانب الروحي في حياة المسلمين .

ج)– شخصية أحمد السرهندي (ت1033هـ): وهو عالم جليل، نشأ على حفظ كتاب الله تعالى، وعلى حفظ العديد من متون العلم، وله إجازات كثيرة في التفسير والحديث والأصول، كما كان صوفيا متألها على الطريقة القادرية، وقد ترجم له الزركلي في الأعلام وأثنى عليه[3] .

وقد ظهر السرهندي في ظروف جد عسيرة، تمثلت في توجه حكومة الهند في تلك الآونة إلى الإلحاد واللادينية، وذلك بما أراده أكبر ملوك الهند "اكبر" حيث جمع كل قوته لطمس معالم الإسلام، وإزالته من على الأرض، إلى حد أن توهم الناس أن القضاء عليه وقهره ضرب من الخيال، وفي هذه الأثناء ظهر الشيخ أحمد السرهندي بما يمتلك من طاقات روحية جبارة، واستطاع مجابهة هذا الواقع الأليم والتصدي له، وكان بحق صورة من صور العلماء الربانيين الذين أدركوا أن التصوف هو القدرة الروحية على تغيير الواقع، ونقله من الخرافة إلى الحقيقة، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن رعونة المادة إلى لطافة الروح، وكانت هذه هي النقطة التي أثارت إعجاب الندوي فيه، وفي هذا يقول: ((فحمل راية الثورة بمفرده، وبدأ بثورة داخلية، بقوة إيمانية، ويقينه وعزمه وروحانيته وإخلاصه، حتى أصبح كل وارث للحكم المغولي أحسن من سابقه، ثم تربع أخيرا على هذا العرش السلطان محيي الدين

---

[1]– أبو الحسن الندوي، المصدر نفسه، ص 72.

[2]–أبو الحسن الندوي، المصدر نفسه، ص58.

[3]– خير الدين الزركلي، الأعلام، بيروت: دار العلم للملايين، ط15، دت، ج7، ص 184.

أورينك زيب عالمكير، الملك الفاضل الصالح المسلم، الغيور الذي يندر نظيره في تاريخ الحكومات الإسلامية، وكان رائد هذه الثورة المباركة إمام الطريقة المجددية الشيخ أحمد السرهندي))[1].

د)– شخصية الأمير عبد القادر الجزائري (1223هـ): كذلك مما أثار الندوي في شخصية الأمير عبد القادر وجعله يتأثر به إلى حد بعيد هو تلك الطاقة الروحية القوية الثائرة التي كانت تتفجر من وجدانه، وتتجسد في واقعة، وظهرت في حركته الجهادية ومقاومته للمستعمر الفرنسي على الرغم من المِحن الطويلة التي ما فتأت تلحق به.

ولئن كان ثمة سؤال يطرح نفسه حول منبع هذه الطاقة الروحية الثائرة في قلب الأمير، فإنا لنترك الندوي يقدم لنا الإجابة الجاهزة، فهو يقول: ((وكان كل يوم يقوم للفجر، ويصلي الصبح في مسجد قريب من داره في محلة العمارة، لا يتخلف عن ذلك إلا لمرض، وكان يتهجد الليل، ويمارس في رمضان الرياضة الصوفية، ومازال مثالا للبر والتقوى والأخلاق الفاضلة، إلى أن توفي رحمه الله سنة 1883م))[2] .

ومن خلال دراسة الندوي لشخصية الأمير، ووقوفه على مكمن القوة فيه، ندرك أن الندوي من أبرز العلماء الذين يناشدون تصوفا عمليا، تصوفا واقعيا، ويدركون أن لا قيمة للطاقات الروحية التي يحوز عليها أصحابها ما لم تُثمر سلوكا جهاديا في مجابهة مشكلة الواقع، والسعي نحو إصلاحه وترميم تشققاته، وهو ما يسوقنا إلى الحديث عن العناية بالباطن، وتغذيته بالمعاني الروحية، أو ما يُعرف عند أرباب القلوب بالتخلية والتحلية .

2– العنـــــاية بإصلاح الباطن .

يمكن القول أن مدار كتابات الندوي كانت على الاهتمام بالجانب الروحي، وإصلاح الباطن، وذلك لأن صلاح الظاهر واستقامته وتفعيل الواقع متوقف على ذلك يقينا، وهو ما عناه الحديث النبوي الشريف " ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله "[3] .

وطهارة الباطن من مختلف الشوائب التي تعلق به وتكدر صفوه هو الآخر يستدعي بالضرورة مجاهدات ورياضات، وهو الأمر الذي تكلم عنه الندوي، وأشار إلى ضرورته، ويمكن أن نستله من مصنفاته ونورد ذكره في النقاط الآتية :

أ– التحلي بالإيمان الصحيح والتوحيد الخالص: وخالص التوحيد هو ما تنتفي معه كل معاني الشرك، وتزول به كل مظاهر التعدد، وفي هذا السياق يُبين الندوي في غاية من الدقة والعمق أن الشرك لا يقتصر معناه على أن يعدل الإنسان أحدا بالله أو

---

[1]– الندوي، المصدر السابق 108.

[2]– الندوي، المصدر نفسه، ص 109.

[3]– حديث صحيح رواه البخاري، محمد بن اسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب الايمان، باب من استبرأ لدينه وعرضه، المجلد1، ج1، بيروت: دار الفكر، ط1، 1981م، ص 19.

يساويه معه ((بل إن حقيقة الشرك أن يأتي الإنسان بخلال وأعمال خصها الله بذاته العلية، وجعلها شعارا للعبودية، لأحد من الناس، كالسجود لأحد، والذبح باسمه، والنذر له، والاستغاثة به في الشدة، واعتقاد أنه حاضر ناضر في كل مكان، وإثبات قدرة التصرف له))[1] .

وهذا الذي يذكره الندوي هو من صور الشرك التي قد لا ينتبه لها كثير من المسلمين، فالناس في أزمنة الشدة كثيرا ما يهرعون إلى أهل المدد والنفوذ، معتقدين فيهم القدرة، وكما يعلم دارسو التصوف الإسلامي أن الإيمان لا تكتمل صورته في المسلم عند أرباب القلوب إلا بنفي السوى، وعدم رؤية الأغيار.

كما يمكن الإشارة أن هذه المعتقدات متواجدة بصورة أوضح في غلاة أصحاب الطرق الصوفية وثقافاتها الزائفة، وهؤلاء وأولئك هم دون التوحيد الكامل الذي يمثل –في حقيقته– اللبنة الأولى في دعوة الأنبياء والمرسلين.

ب– إحياء الأبعاد الروحية في الشعائر: ذلك أن الممارسات التعبدية الشعائرية كثيرا ما يقف بها أصحابها عند رسوم الظاهر، فتصدر منهم حركات وأفعال مفرغة من المحتوى الروحي والبعد الإيماني، فتغدو قشورا لا غاية منها، ولا تأثير لها في واقع الحياة .

ولقد تطلع الندوي إلى هذه النقطة، ووضع أصبعه على مكمن الداء، وأدرك بعمق ما يترتب على الممارسة السطحية الجافة للعبادات، وخير مثال تتجلى فيه هذه الحقيقة الصلاة، وكيف يجب أن تُفهم؟ ، وكيف يجب أن تُؤدى؟ وما هي ثمرتها في حياة المصلي، يقول الندوي: ((والصلاة تزخر بالقوة والحيوية، لها من الفضل والتأثير في ربط الصلة بالله والوصول إليه، وقطع منازل القرب والولاية ما ليس لشيء آخر في الدين))[2]، ويقول في بيان الآثار الروحية لشعيرة الصلاة: ((وبها وصل المخلصون والمجاهدون من هذه الأمة في كل عصر وجيل إلى مكانة في الإيمان واليقين، والعلم والمعرفة، والربانية والروحانية، والقرب والولاية، لا يصل إليها ذكاء الأذكياء، وقياس العقلاء والحكماء، وكذلك الشأن في كل عصر))[3].

وما قيل عن الصلاة هو نفسه ما يقال عن سائر الشعائر من صوم وزكاة وحج، وما يقال عن سائر ألوان التعبد والقرب من الله كالجهاد وطلب العلم وإصلاح ذات البين، فهي في جملتها أعمال منطوية على أسرار تُفعِّل الروح، وتُحيي القلب، وتخرج إلى طور الواقع وشعاب الحياة بشتى ميادينها، وبها يتخلص المسلم من ربقة المحسوس، ويبلغ مقام الإحسان الذي هو إحدى ركائز الدين وجوهره، ولذلك جمع النبي –صلى الله عليه وسلم– بينه وبين الإيمان والإسلام في الحديث الشهير ((أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه هو يراك))[4] .

---

[1]– الندوي، العقيدة والعبادة و السلوك في ضوء الكتاب والسنة والسيرة النبوية، الكويت: دار القلم، ط3، 1986م، ص70.

[2]– الندوي، العقيدة والعبادة والسلوك، ص84.

[3]– الندوي، المصدر نفسه، ص 85.

[4]– حديث متفق عليه، البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي –صلى الله عليه وسلم– الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، ج1، ص18، ورواه مسلم في الجامع الصحيح في كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله، ص 89.

ج– الذكر وأثره على القلب والسلوك: من المعروف أن الذكر أول مراتبه اللسان، ثم الوعي (الفهم)، ثم القلب، فإذا بلغ الذاكر مرتبة القلب فقد تحقق بالتحلية والتنمذج، ومنه يغدو الذكر واقعا معاشا بالنسبة للذاكر، وبيان ذلك أن الذكر هو غذاء الروح، واطمئنان القلب، بصريح قوله تعالى: ((الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ))- الرعد/28- والقلب المطمئن هو قائد الجوارح في فجاج الحياة إلى كل بر وإصلاح، والزاجر لها عن شتى صنوف البوائق والموبقات، ومن هنا يتجلى أثر الذكر في الواقع .

ولهذا نجد أن الندوي استوقفه هذا الموضوع، وطاف حوله وعرج على الكثير من الأذكار الواردة عن النبي –صلى الله عليه وسلم–، وقسمها إلى أذكار وأدعية مختصة ببعض الأوقات والأزمنة، وأذكار وأدعية عامة غير مرتبطة بزمان ولا مناسبة[1].

ولا نريد في هذا المقام الوقوف على الشواهد والأمثلة إذ هي معلومة، وقد حوتها مصنفات السنن وصحاحها، ولكن الذي نرى أنه يعنينا هو أن نبين أن المسلم الحق هو من بلغ مقام التنمذج بالذكر، وهو الذاكر لله على كل حال، وهو الذي غدا لسانه رطبا بهذا الذكر، واصطبغت به نفسه واكتسى قلبه، فتغير واقعه تبعا لذلك، فواقع كل أمة من الأمم إنما هو من صنيع أفكارها، وهو نتيجة حتمية لحالتها النفسية التي هي عليها، ((إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ))-الرعد، الآية 11- .

وفي هذا السياق بين لنا الندوي صورة الذكر الصحيح وشرائطه استقاء من تلك المدرسة الربانية التي تُهذب فيها الأخلاق، وتُزكى النفوس، وتستقيم الحياة، وهذه المدرسة تقوم على أسس وركائز هي: الإخلاص، التوبة، الصبر، العفو، المراقبة، اليقين، الاعتصام بالكتاب والسنة، حب رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، والتحقق بالأخوة[2] .

وهذه هي المقامات التي يشترط في الذاكر التحلي بها حتى يحقق الذكر غايته، أما ما سوى ذلك من الاكتفاء بشقشقة اللسان فلا عبرة به.

وقد أغفل الندوي في هذا المقام مراتب الذكر التي ذكرها المتصوفة في مصنفاتهم، وهي الارتقاء من طور الذكر مع وجود الغفلة إلى طور الذكر مع الحضور، ثم الارتقاء إلى طور الذكر مع الغفلة عن ما سوى المذكور، وما نحسب أن الندوي لم يكن على علم بذلك، وإنما نرى أنه تكلم عن الذكر من زاوية ربطه بالسلوك، ومن جهة أن يُفجر في القلب تلك الطاقات الروحية الهائلة التي تمتد إلى الواقع فتصلحه .

د– تصحيح النية: من المعلوم أيضا أن مدار صحة الأعمال وارتقائها إلى درجة القبول عند الله تعالى هو صدق التوجه إلى الله، وسلامة المقصد، وفي آيات الوحي الكريم وأحاديث النبي –صلى الله عليه وسلم– ما يُثبت ما ذكرنا، وهي معروفة ولا نرى حاجة

---

[1]– الندوي، العقيدة والعبادة والسلوك، ص من 111 إلى 124.

[2]– الندوي، المصدر نفسه، ص من 154 إلى 157.

إلى سوقها، وإنما الذي نود الوقوف عليه هو دراسة الندوي لهذه النقطة، وبيان مدى فاعليتها في الوقع الحياتي، وفي إقبال المسلم على شتى صنوف الطاعات.

ومنهج الندوي في هذه النقطة يعتمد على حشد مجموعة كبيرة من الآثار الدالة على ذلك، والتي يتضح معها المطلوب، وتتبين الغاية، والقاسم المشترك بين هذه النصوص جميعا إنما هو كيفية الوصول إلى الله تعالى، وبذلك يكون الحق هو الغاية من وراء كل صور الأعمال الصادرة منا، وما يقتضيه ذلك من نفي للسوى، سواء كان هذا السوى مقصدا دنيويا، أم هوى يطوف في الباطن فتستلذه النفس وتركن إليه.

ومن الأحاديث الواردة في ذلك:

قوله – صلى الله عليه وسلم –: ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه))[1]، وفيه تقديم لمحبة النبي –صلى الله عليه وسلم– عن ما سواه، والأصل أن محبة رسول الله هي نابعة من محبة الله، أو فرع عنها، بدليل قوله تعالى: **((قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ))**-آل عمران/31-.

وقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه))[2]، وهذه النصوص وغيرها فيها دلالة على أن الإيمان هو فاعلية في الحياة، وأنه يجب أن يكون المقصد من وراء كافة الأعمال التي يُقبل عليها المسلم أو يدعها، مما يستدعي بالضرورة مراجعة للإيمان والنوايا .

3– الإيمان من التنظير إلى الممارسة العملية.

لقد صاغ الندوي –رحمة الله عليه– للإيمان مفهوما انتقل به من ذلك الحيز النظري الذي مجاله العقل والقلب إلى أن يكون وظيفة حيوية مُشكلة للسلوك الإنساني الفعال والمصلح، وهو بذلك يهدف إلى بناء مسلم واقعي، منضبط السلوك وفق مقتضى الشرع، وفي سياق ما تقتضيه الحياة، وما يتطلبه الواقع بمختلف تحولاته ومستجداته، وهو ما يصطلح عليه الندوي بأغرب انقلاب وقع في تاريخ البشرية، ويقول في ذلك: ((لقد كان هذا الانقلاب الذي أحدثه النبي –صلى الله عليه وسلم– في نفوس المسلمين وبواسطتهم في المجتمع الإنساني أغرب ما في تاريخ البشر، وقد كان هذا الانقلاب غريبا في كل شيء، كان غريبا في سرعته، وكان غريبا في عمقه، وكان غريبا في سعته وشموله، وكان غريبا في وضوحه وقربه من الفهم، فلم يكن غامضا ككثير من الحوادث الخارقة للعادة، ولم يكن لغزا من الألغاز))[3] .

---

[1]– حديث صحيح، رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، مجلد1، ج1، ص09، وفي رواية مسلم: ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده، والناس جميعا))، كتاب الإيمان، باب وجوب محبة –رسول الله صلى الله عليه وسلم–.

[2]– حديث صحيح رواه البخاري، كتاب العلم، باب لا يظلم المسلمُ المسلمَ ولا يسلمه، م2، ج1، ص91.، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير.

[3]– الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، القاهرة، دار ابن الجوزي، ط1، 2012م، ص 93.

ومكمن هذا الانقلاب في سرعة تحول الأمة من الصنمية الجامدة إلى التحقق بالإيمان الصحيح وفي تحول الفرد المسلم من الفهم الساذج للحياة إلى إدراك معانيها وغاياتها، ومن العبثية الهدامة إلى الجد البنَّاء، وحتى تكون الصورة في ذهن القارئ أدق وأوضح يضرب لنا الندوي هذا المثال فيقول: ((وكان إيمانهم بالله وإحالتهم خلق السماوات والأرض إلى الله لا يختلف عن جواب تلميذ من تلاميذ فن التاريخ يُقال له: من بنى هذا القصر العتيق؟ فيُسمي ملكا من الملوك الأقدمين من غير أن يخافه أو يخضع له، ... فكانت معرفتهم به مهمة غامضة، قاصرة مجملة، لا تبعث في نفوسهم هيبة ولا محبة))[1].

ومن هنا بات من الجلي أن حقيقة الصورة الإيمانية في المسلم إنما تتمثل في تلك القوة التي تهزم المطامع والشهوات، وتحظ النفس على الاستقامة والإصلاح، ولا تكون النفس على هذه الدرجة من القوة إلا بخضوعها التام لسلطان الحق، والتخلص مما سواه تخلصا يحجبها عنه ويحجبه عنها، وهي النفس التي قال عنها ابن عطاء الله أنها أمست لا ترى أحدا برؤيتها للأحد .

وبناء على هذا الذي سبق فإن الإيمان الصحيح هو الذي يبني الجانب العملي من المسلم، وعلى حد تعبير الندوي يُقيم اعوجاج الحياة، ويرد كل فرد في المجتمع إلى موضعه الصحيح وتغدو فيه الهيئات البشرية طاقات مثمرة لا أشباح مفرغة، متوحدة تحت ظلاله وكأنهم أسرة واحدة، لأنها استمدت وجودها الأول من أب واحد، ألا وهو أبونا آدم –عليه السلام–، ويذكر الندوي من واقع الأمة الإسلامية أن قادة الفكر والرأي فيها لم يدركوا أهمية هذه الطاقة، ولم يتوقفوا عند حدود الجهل بها فحسب بل عاشوا في عداء معها، وفي خوف منها[2]، ومن هذه الجهالات تولدت المعاناة، وعشش التقهقر، وخيم على أوساطها حتى انتهت إلى ما هي عليه.

ومن نتائج خمود ثورة الإيمان نشوب الفوارق المستحدثة، والمعايير الوهمية التي أمسى الناس يتفاضلون على أساسها[3]، وهذه النتيجة هي من نواتج الغفلة على ما أمدهم به الإسلام من معيار واحد يحدث على أساسه التفاضل، وهو الوارد في قوله تعالى: ((إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ))– الحجرات، آية 13.

وفي موضع آخر نجد أن الندوي يثبت ما ذكره في المواضع السابقة مما سلطنا عليه الضوء، مبينا في صورة أكثر وضوحا أنْ ((إذا هبت ريح الإيمان جاءت بالأعاجيب، ورأى الناس روائع من الشجاعة واليقين، والعفة والأمانة، والإيثار وهضم النفس، وروح التطوع والاحتساب، والتواضع في المظاهر وكبر النفس، وسمو النظر))[4].

وهو قول جلي في بيان أن قوة الإيمان هي العامل الأساس في إصلاح الواقع، وأنه لا خير في إيمان حبيس القلب وإن تظاهر صاحبه بقوته، وهذه الفاعلية الإيمانية هي التي يسميها الندوي بالشلال الإيماني المتدفق، وبقوة التأثير، ويرى أن المفهوم المغيب في

---

[1]– المصدر نفسه، ص 92.

[2]– الندوي، نفحات الإيمان، القاهرة: دار الصحوة للنشر والتوزيع، ط1، 1985م،ص24.

[3]– الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق)، ص102.

[4]– الندوي، إذا ذهبت ريح الإيمان، الكويت، دار القلم، دط، دت، ص 07.

البلدان الكبرى والقوى العالمية التي تمثل قيادة العالم عن جدارة أو بغير جدارة، وتقوده بحق أو بباطل[1]، ويمكن أن نُضيف في هذا السياق أن هذه القوة الإيمانية تنتفي في العالمين الغربي والإسلامي على حد سواء، فأما العالم الغربي فهو العالم الذي سخر جهوده كافة في التعامل مع الموجود المادي، ولا صلة له بتلك البواعث الإيمانية، وقد حقق شطرا من الحضارة والرقي، وأما العالم الإسلامي فهو العالم المحروم من الإيمان السوي، والمحروم أيضا من المقومات المادية، والأدهى والأمر عندما يظهر بتلك الصورة التي عزلت الدين عن الحياة، ونفت الإيمان من الواقع، وبات الدين محصورا في طور الشعائر، كما بات الإيمان محصورا في طور القلوب، ونتيجة لهذا غربت عنه شمس الإيمان، وأفلت في سمائه أمارات الرقي .

وهذا الذي نبهنا إليه هنا يسوقه لنا الندوي في سياق بيانه لحقيقة الإيمان الذي يحث على الزهد في الدنيا في الوقت الذي يحث فيه الأمة الإسلامية على اكتساب مقومات الريادة والقيادة فيقول: ((ولكن هذا الإيمان العميق القوي بالآخرة وإيثارها على الدنيا، والزهد في زخارف الحياة وفضول العيش لم يحمل أصحابه على الاعتزال عن قيادة العالم وتوجيه الإنسانية، والعيش في عزلة عن الحياة، ولم يحملهم على رفض أسباب المعيشة والقعود عن الكفاح للحق والخير، ولم يكن عاملا من عوامل الضعف والاستسلام – كما شوهد ذلك في القرون المتأخرة –، بل كان عاملا من عوامل القوة والإقدام، والتمرد على قوى البشر، ومن أعظم أسباب الشجاعة والقوة والانتصار))[2].

4- التصوف ودوره في إصلاح الواقع :

من أهم المواضيع التي طرقها الندوي بقلمه موضوع التصوف الإسلامي، وهذا الموضوع على وجه التحديد تناولته المصنفات الطوال قديما وحديثا، وتطرقت إلى أدق التفاصيل التي احتواها، غير أن الذي نود التركيز عليه في هذا المقام إنما هو تصويب النظرة إليه، تلك النظرة المشوهة التي تناولته على أنه ((عبارة عن البطالة والكسل والجمود والفرار من معترك الحياة))[3].

وفي تصورنا أن حمل التصوف على هذا المعنى السلبي الذي استقر في بعض العقول والتصورات وعلى امتداد مراحل التاريخ الإسلامي الطويل، وكان كمخاض عسير أنجب تخلفا رهيبا في حياة المسلمين على مستوى المفاهيم وعلى مستوى الواقع، لعل من مظاهره تفشي صور العداء في الحقل الإسلامي بين كل طائفة وأخرى، ولا عجب أن نقف في تاريخ التصوف منذ نشأته وإلى يوم الناس هذا من لا يزال حبيس أوهامه، فيعتقد أن التصوف هو مذهب من المذاهب التي ولدت في حقل المعرفة الإسلامية ولادة غير شرعية، وأنه لا أصل له في تربة العلم ولا في دلالات النصوص .

وبغض النظر عن التعريفات التي قدمها أهل هذا الفن له منذ نشأته، وبغض النظر أيضا عن الحكم على هذه التعريفات بالعمق أو بالسطحية، وبالبساطة أو بالتعقيد، بغض النظر عن هذا كله فإنه ينبغي العلم بأن مدلول هذا المصطلح لا يعدو أن يكون تلك

---

[1]- الندوي، نفحات الايمان، (مصدر سابق)، ص11.

[2]-الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، الكويت: دار القلم، ط5، 1985م، ص90، 91.

[3]-الندوي، ربانية لا رهبانية، (مصدر سابق)، ص 103.

القوة الروحية الثائرة في القلب، والباعثة على إحياء الواقع، وتفعيله وإثارة مختلف وجوه النشاطات فيه، وهو القوة الروحية المؤثرة في نمطيات السلوكيات الحياتية وفق مطلوب الشرع، وهو المعنى الذي انتهى إليه الندوي في بيانه لمضمون التصوف، حيث ذكر أنه تلك ((القوة المعنوية والروحية، والشخصية القوية الفذة، والإخلاص والربانية، والحنان والعاطفة، والإقدام والشهامة التي نحتاج إليها للتضحية والفداء، وبذل المهج والأرواح، والجهاد والكفاح، والتجديد والإصلاح، والفتح والتسخير، ولا تنشأ ولا تظهر في أكثر الأحيان إلا بعد صفاء الروح وتهذيب النفس، والرياضة والعبادة، ولذلك نرى أن أكثر من قاموا بدور التجديد والجهاد في تاريخ الإسلام كانوا يتمتعون بمكانة روحية سامية))[1]، وهو نفسه ما ذكره البوطي – من المعاصرين – إذ انتهى إلى أن التصوف اسم حادث لمسمى قديم، وهو لا يعدو أن يكون سعيا إلى تزكية النفس من مختلف الأوضار العالقة بها[2].

ويمكن القول أن ما ذهب إليه الندوي في تناوله وفهمه للتصوف هو فهم حصيف، يتسم بالعمق والتأصيل، فأما العمق فيكمن في نقل دلالة المصطلح من السطحية وما يترتب عنها من عزوف عن الدنيا إلى واقع الحياة وما يقتضيه من ولوج شعابها وإصلاح شؤونها، وذلك بعد التسلح بالتزكية الباطنية، وتنقية النفس من مكدراتها وعللها الخفية، وأما التأصيل فيظهر في تقديمه لهذا المفهوم وفق دلالات الوحي وضوابط التشريع .

كما أن من النماذج الحية التي يقدمها الندوي على ما يقوله، وهي نماذج اعتنت بنقاء الباطن واتخذته ركيزة في تقويم اعوجاج الظاهر، نقول من هذه النماذج شخصية الأمير عبد القادر الجزائري، وشخصية محمد أحمد السوداني، وشخصية أحمد الشهيد، وشخصية أحمد الشريف السنوسي، وغيرها، وهي شخصيات عملت على رعاية القلوب، وإقامة دعائم الجهاد، وحب الشهادة والتضحية، وهذه هي الغايات العملية من إدمان الرياضات الروحية، وتربية النفس، وكبح جماحها عن المحضور[3] .

خـــــاتمة:

وغاية ما يمكن أن نخلص إليه بعد هذه الجولة الموجزة في فكر الندوي –رحمة الله عليه– هو أن التصوف الإسلامي ليس مذهبا من المذاهب التي نشأت وترعرعت في حقل المعرفة الإسلامية، ذلك أن المذاهب إنما هي رُؤى وفهوم قائمة أساسا على عملية احتكاك بين العقل والنص، وهي في جملتها قابلة للتطور ضمن سياق المستحدثات التي يفرزها توالي الأزمان، وتجدد الأحداث، وأما التصوف فهو شعلة في عالم الروح، ونبضة من نبضات القلب التي يُشعِلُ فتيلها الإيمان، فإذا كان المسلم متمتعا بهذه الطاقة استطاع ولوج عالم الحياة والواقع، وتمكن من تفعيله ونشر الصلاح في أرجائه .

---

[1]– الندوي، ربانية لا رهبانية، (مصدر سابق)، ص 104.

[2]– محمد سعيد رمضان البوطي، السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، دمشق: دار الفكر، ط1، 1988م، ص189

[3]– الندوي، ربانية لار هبانية، ص 104.

ومن هنا تبدو ضرورة وصل التصوف بالحياة، فإذا كان الفقه هو ظاهر السلوك والحياة، فإن التصوف هو روحها وجوهرها، وهو الباعث على الاستقامة في دروبها، وعلى الإصلاح في شؤونها، ومن بالغ الخطأ أن نفهم أنه عزلة عن معترك الحياة، أو هروبا من انشغالاتها .

ومكمن سذاجة الناس وسطحية عقولهم –كما كان أشار الندوي– إنما هو الوقوف على ظاهر المصطلحات، والحكم عليها من خلال هذا الظاهر، وإن من أكبر الجهالات التي ظلت وإلى يومنا هذا تتذرع بها بعض الفهوم هو قولهم بحدوث مثل هذه المصطلحات، وأنها لا أثر لها في العهد الأول من الإسلام، وهو قول في غاية السطحية والجهل، ذلك أن أبسط الناس وأقلهم اطلاعا على الثقافة الإسلامية يدرك بقليل من البحث ومن غير عناء أن المضامين متقدمة تاريخيا على المصطلحات في كثير منها، فما كان الصحابة ولا التابعون يسمون المقاصد، ولا أصول الفقه، ولا النحو ولا غيرها، وكذلك الأمر بالنسبة للتصوف نفسه .

ويمكن القول أن من أسباب تخلف هذه الأمة عكوفها على المصطلحات، ونقدها لها بطريقة أو بأخرى، مع غفلتهم عن مضامينها، وجهلهم بكيفية توظيفها في حياتهم، ومن المقطوع به أن قوة إيمان السلف، وحرارة تدفق روحانيتهم كان هو السر في تفوقهم، وفي المقابل فإن التفريط في هذا الجانب الجوهري من الدين لدى الخَلَف هو السر في تخلفهم، فقد فرطوا في ثوابتهم، وأخفقوا في التعامل مع مقومات غيرهم .

قائمة المصادر والمراجع:

-القرآن الكريم برواية ورش عن نافع .

1- البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، بيروت، دار الفكر، ط1، 1981م.

2- مسلم بن الحجاج القشيري، الجامع الصحيح، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط2، 1392هـ.

3-الندوي (أبو الحسن)، ربانية لا رهبانية، بيروت: دار الشروق، ط1، 1983م.

4- الندوي، العقيدة والعبادة والسلوك في ضوء الكتاب والسنة والسيرة، الكويت: دار القلم، ط3، 1986م .

5- الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، القاهرة: دار ابن الجوزي، ط1، 2012م.

6-الندوي، نفحات الإيمان، القاهرة: دار الصحوة للنشر والتوزيع، ط1، 1985م .

7-الندوي، إذا هبت ريح الإيمان، الكويت: دار القلم، دط، دت.

8-الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، الكويت: دار القلم، ط5، 1985م.

9- البوطي (محمد سعيد رمضان)، السلفية مرحلة ومنية مباركة لا مذهب إسلامي، دمشق: دار الفكر، ط1، 1988م .

10- الزركلي (خير الدين)، الأعلام، بيروت: دار الملايين، ط05، دت .

11- البوطي (محمد سعيد رمضان)، السلفية مرحلة ومنية مباركة لا مذهب إسلامي، دمشق: دار الفكر، ط1، 1988م .